ألطّيّب غنايم (*)

قراءة في رّواية "ألمينا" العبريّة الصّادرة حديثًا ومقابلة مع مؤلّفها

الأديب والمُحَرِّر يوسي غرنوفسكي: «طموحي الأدبيّ هو أن أَحْكي/ أكتُب الرّواية الفلسطينيّة غير المحكيّة في الرّواية الصّهيونيّة الرئيسة المقبولة»

اسم الكتاب: «ألمينا» (رواية)
المؤلف: يوسي غرنوفسكي
الناشر: "دار مِطْعِان"، سلسلة «عش البومة»، ٢٠١٣
عدد الصفحات: ١٩٦ صفحة

«يطلق على يافا أيضًا لقب أم الغريب. ليس بالضّرورة بالمعنى المباشر القادم من «الخارج»، قد يأتي شخص من الخارج ولا يشعر بنفسه غريبًا، بل قد يشعر نفسه «وليًّا» كما قالت امرأة جاءت لتعيش في يافا عن قرب إنّ هذا شعورها، قرب كلامها في إحدى المدوّنات. قد يقوم عامل غريب سكن في بيت أحد المسنّين المفروض به أن يعمل على رعايته، بالتنكيل بالمسنّ المسؤول عن رعايته ويتصرف بالبيت كأنه ملكه. بكلّ تأكيد يمكن إعطاء أمثلة أخرى.

إذن، باستثناء المعنى السّطحيّ والفوريّ لكلمة «غريب»، هناك معنى آخر، أكثر عمقًا، يتطرّق إلى المشاعر الدّاخليّة للإنسان. فقد يشعر الإنسان غريبًا في بيته، وسط عائلته، وزوجته وأولاده، وفي المجتمع الذي ينتمي إليه وفق أيّ تعريف كان. في قصيدته «داخل البيت، خارجه» يصف الشّاعر التّونسيّ، يوسف رزوقة، حالة حيث تعتريه فجأة مشاعر غريبة داخل بيته، إلى درجة الرّعب، إلى أن يلوذ بالفرار من هناك ويَتَسَلَّل، مبتسمًا، وبخفَّة، نحو الرّصيف. أي رصيف؟ رصيف القطار؟ أم ربّما رصيف الميناء؟

"يأتي اليوم أشخاص كثيرون من الخارج، ليسوا بالضّرورة غرباء بالمعنى العميق الذي أتحدّثُ عنهُ، هؤلاء هم غرباء بالمعنى السّطحيّ، ينجذبُونَ إلى يافا لا لجوهرها الدّاخليّ، الميناءيّ، وإنّما لمجرّد إمكانيّة السّكن في بيت فاخر قبالة البحر. هم برجوازيّون أثرياء. هذا إلى جانب المستوطنين القادمين بهدف

(*) صحافيّ ومترجم فلسطيني- باقة الغربية.

تكمن أهميّة هذه الرّواية المنتمية للأدب الواقعيّ، في وعيها للنسيج الاجتماعيّ القائم في فترة ما قبل العام ١٩٤٨، حيث أنّها تطلع القارئ على عالم المهاجرين اليهود الجُدُد، وعلى عالم «اليشوف» الآخذ في التشكل، على علاقات العمل، على الأجواء في الميناء، على علاقات العمّال بالهستدروت (نقابة العمال) وبقياداتها. على الشّكّ الذي ترتكز عليه العلاقات الإنسانيّة بين أطياف مختلفة. جامع البحر، قهوة المدفع، جامع محمودية، المنشية، سوق صلايحي، هي جزء من طيف الأماكن اليافيّة التي تستعيدها «ألمينا».

التّحرّش. عندها، يشعر الشّبّان اليافيّون، المولودون في يافا- بأنّهم غرباء في مدينتهم، وهم ينظرون إلى الغرباء كيف يقتنون، بسهولة نسبيّة، شققًا هم فقط لا يملكون إلاّ أن يحلموا بها، أو بيع أعضائهم للحصول على تمويل لهذه الشّقق. لهؤلاء الشّبان، الذين هم عضو من جسد يافا، للاجئ، للرحّال، للشاعر، للصيّاد اليافيّ، ولكلّ من يشعر نفسه غريبًا بالمعنى العميق لهذه الكلمة، في كلّ مكانٍ آخر، حيث الطّموح إلى الحريّة يجري في دَمِهِ، مُهْدًى هذا العدد. يوسي غرنوفسكي» (مطعان، العدد ١٧، ٢٠٠٧ – عن العبريّة: ريم غنايم)

يوسي غرنوفسكي هو كاتب يهوديّ يافاويّ يَنْبِشُ، عَبْرَ أعمالِهِ القصصيّة، في الماضي غير البعيد لبلادنا، في فلسطين/ الشّام، قبل قيام دولة إسرائيل، مسلّطًا الضّوء على الحياة المدينيّة اليافيّة العربيّة، وظلال الحَيَوَات المختلفة، الهادئة والمتوتّرة التي سادت البلاد قبل النّكبة، محاولاً فحص النّسيج الاجتماعيّ بين العرب الفلسطينيّين، اليهود المهاجرين من دول أوروبا وباقي القوميّات والمجتمعات المختلفة التي رفدت ميناء يافا على وجه الخصوص.

يعملُ غرنوفسكي أمين مكتبة في دار كتب يافيّة، منها، يواصل حياكةَ مشروعه الأدبيّ (غير المنفصل عن السّياسة، كما سنرى من خلال قراءتنا لروايته الجديدة، وحوارنا معه)، فهو المحرّر لمجلّة "مطعان" العبريّة، وهي مجلّة سياسيّة- أدبيّة، أسّسها الشّاعر الرّاحل مكسيم جيلان (١٩٣١- ٢٠٠٥)، ليحييها من بعده غرنوفسكي. سياسة التّحرير اختلفت، وأخذت منحى الأدب أكثر فأكثر، بدلاً من التّوجّه السّياسيّ والتّركيز على محاورها المختلفة في فترة تحرير جيلان. لكن هذا الاختلاف، لم يبعد السّياسة، التي دَخَلَت عالم الأدب، لنرى كثيرًا من الكتّاب والشّعراء اليهود والعرب ينشرون في طيّات "مطعان" الجديدة، أعمالاً أدبيّة مختلفة الجانرات، إحدى ميزاتها الرّئيسة هي السّياسة/ الأدب المسيّس/ أدب السّياسة.

غرنوفسكي مؤسّس لجماعة «مطعان»، وهي حَرَكة كتّاب/ كاتبات، شعراء/ شاعرات وأدباء/ أديبات، يبدعون أعمالهم الأدبيّة، بالعبريّة، العربيّة، الإنكليزيّة والرّوسيّة. قام غرنوفسكي قبل أشهر معدودة بنشر مجموعة شعريّة للشابّة اليافيّة آيات أبو شميس، وذلك بعد نشره للمجموعة الشّعريّة المشتركة، للشاعرين (الفلسطينيّ واليهوديّ) اليافيّين، محمّد أغواني ويونتان كوندا (شروط مُسْبَقَة – ترجمها للعربيّة: ألطّيّب غنايم). هذا النّتاج الذي ينبَثِقُ من المَجلّة ويستمرّ بدار النّشر يشكّل حراكًا ثقافيًا مغايراً في المشهد الثّقافيّ الإسرائيليّ. صدر عن ذات دار النّشر «مختارات من الشّعر الفلسطينيّ الحديث» (ترجمة وتحرير ألطّيّب غنايم) وهي أنتولوجيا للشعر الفلسطينيّ للجيل الشّابّ، لاقت أصداءً في الصّحافة العبريّة، وتفاعلاً من القرّاء.

تعني مِطْعَان بالعبريّة ، شحنة/ عبّوة، ومطعان تساد تعنى عبوّة ناسفة. على غلاف المجلّة، نجد لوغو على شاكلة قبضة يد مضمومة، صارمة، وتحتها مكتوب: شحنة للفكر وللعَمَل- إشارات لمحتوى المجلّة، التي تضمّ بين دفّتيها ترجمات لمقالات سياسيّة- أدبيّة، أشعار، نثر ومزيد من الجانرات الأدبيّة اللغويّة. "مطعان" تبدو كمن تعمل على تطوير الهامش الحيّزيّ/ الأدبيّ/ السّياسيّ.

"ألمينا": نحو كتابة/ رسم/ استعادة يافا ما قبل النّكبة

يقوم غرنوفسكي، في روايته الجديدة، بعمل غير مألوف في المشهد الأدبيّ الإسرائيليّ: بطل كتابه هو عربيّ، سوريّ. اسمه حسن، من اللاذقيّة. يصل إلى ميناء يافا، دون هدف خاصّ. شخصيّة هي البطل والمحور الرّئيس الذي يسحبنا معه طيلة ثلاثة وثلاثين فصلاً. حسن، السّوريّ الغريب عن يافا، يصل إليها، فتبقيه الأقدار، وتحاك من حوله قصص تربطه بيافا، تربطه باليهود، تدخله إلى المخاطر، وتجلب له

الشّبهات من قبل الفلسطينيّين اليافيّين. شخصيّات ألمينا، محبوكة بإتقان، يحكيها راوٍ عالم بكلّ شيء، يدخل بواطنها. في الرّواية يستخدم غرنوفسكي تقنيّة تيّار الوعي (stream of consciousness) فيكشفنا على انسيابيّة الأفكار الطّبيعيّة للأبطال، لكن، الأصعب من ذلك أدبيًا، هو أنّه لا يفصل بين هذا التّيّار وبين الحوارات، فيتوجّب على القارئ إقامة علاقة متيقّظة مع النّصّ المناور.

تكمن أهميّة هذه الرّواية المنتمية للأدب الواقعيّ، في وعيها للنسيج الاجتماعيّ القائم في فترة ما قبل العام ١٩٤٨، حيث أنّها تطلع القارئ على عالم المهاجرين اليهود الجُدُد، وعلى عالم «اليشوف» الآخذ في التشكل، على علاقات العمل، على الأجواء في الميناء، على علاقات العمّال بالهستدروت (نقابة العمال) وبقياداتها. على الشّكّ الذي ترتكز عليه العلاقات الإنسانيّة بين أطياف مختلفة. جامع البحر، قهوة المدفع، جامع محمودية، المنشية، سوق صلايحي، هي جزء من طيف الأماكن اليافيّة التي تستعيدها «ألمينا».

مثال على التّفاعلات في النّسيج الاجتماعيّ الفلسطينيّ– الفلسطينيّ– اليهوديّ: شراكة حسن مع اليهوديّ، دوف، نجدها قد أثّرت على علاقاته بإبراهيم وباقي أصدقائه، ونفّرت العرب منه. في نهاية الفصل السابع عشر نكتشف انكسار برميل إسمنت ينكسر فتنكشف ذخيرة مهربة. لمن؟

هكذا يبدأ الفصل الثّامن عشر:

«مع اكتشاف الذخيرة، قليل من الغائط طفا على السطح. لم يقل أحد إن الهستدروت ذات علاقة بهذا الأمر، لكن الجميع كان على علم أن من كان وراء تهريب الذّخيرة هم اليهود. من سواهم؟ ادّعى إبراهيم. وكان على حقّ. حسن لم يمتلك إجابات. نعم، لقد عادا يتحدّثان. أم ذيب حرصت على عقد صلح بينهما. هناك وظائف في العائلة، أعدت فقط للنساء. تصليح: للنساء الحكيمات. وأم ذيب كانت منهنّ" (ألمينا، ص ١٨)

وفي الفصل الثّالث والعشرين:

«ساد لغط بين الجماهير، أخذ في الارتفاع. لم يفهموا كلّ كلمة لكنهم فهموا مجملها. الرسالة وصلت. شعر ميشيل أن الجمهور مأخوذ به. طيلة خطابه وحتى الآن لم ينظر ولو مرّة واحدة إلى حسن. لكنه لم ينسه. أبقاه حتى الفينالي، للنهاية، وحينها أسرعَ قبل أن تصل شرطة الميناء إليه: لا تذهبوا إلى الهستدروت، ولا تنخدعوا على يد المتعاونين ومن والاهم، الخونة! مثل هذا الخائن الذي يقف أمامكم... فتوجّه ميشيل كليّة ليشير إلى حسن فظلّ مرفوع اليد في الهواء، وفاغرًا فاه. في المكان الذي كان حسن قبل وقف فيه، إلى جانب أمبارجي، وقف حورانيّ ونظر إلى الإصبع الممدودة نحوه. ما هذا؟ من هذا؟ أين هو؟... ميشيل استكشف بسرعة الجمهور باحثًا عن حسن وعن جارزته، عن البحري الطويل المرافق له، لكنه لم يستطع رؤيتهما. إلى أين اختفيا». (ألمينا، ١٤٩–١٥٠)

تواصل الحبكة التّشابك حّتى صفحتها الأخيرة، لتمرّ بحادث قتل غامض، علاقة حبّ غير يسيرة، علاقات كراهيّة، علاقات شراكة مستحيلة بين عربيّ ويهوديّ، علاقات مخابرات يهوديّة ضدّ الفلسطينيين، علاقات مقاومة وعلاقات تواطؤ. محاولة لوصف العلاقات المركّبة التي انبنى منها عالمَ يافا الحيّزيّ والنّفسيّ قبل ١٩٤٨.

مقابلة مع الأديب والمحرّر يوسي غرنوفسكي

س: لماذا «مطعان»، لماذا سياسة وأدب؟ لماذا كأديب، تدمج السياسة؟

ج: من البداية، منذ تأسيس مطعان على يد النّاشط السّياسيّ والشّاعر الرّاحل مكسيم جيلان، كان هو من قرّر أن تكون المجلّة سياسيّة بالأساس، وحينها كان الملحق الأدبيّ يُدْعَى «مطعان تساد» أي عبوّة ناسفة. هذه القنبلة كانت الأدب في مجلّتنا. وحين استلامي المجلّة، بعد رحيله، أخذت أحوّلها شيئًا فشيئًا إلى أدبيّة، مقلّلاً من المقالات السّياسيّة. في البداية شكّل الأدب ربع المجلة والباقي كان سياسة، ترجمات مقالات ومقالات لكتّاب إسرائيليّين وفلسطينيّين، قراءات وتحليلات. لكن منذ العام ٢٠٠٥، بعد وفاة جيلان، استلمت وبعد استلامي تحرير مطعان، وجدت أن المجلة تبنى وفق طاقاتي النّفسيّة، يعني وفق ما أفضّله، وأقدر على القيام به، نفسيًا ومهنيًا، فكان هذا التّحوّل نحو الأدب.

س: ألم تتردَّد في «هجرة» السّياسة؟

ج: بتاتًا. بالنّسبة لي الأدب والسّياسة غير قابلين للفصل عن بعضهما البعض. وكنتُ قد كتبت في إحدى مقدّماتي للمجلّة التي صارت تتحوّل شيئًا فشيئًا معي، أن «مطعان (الشّحنة) تحوّلت كلها إلى عبوّة ناسفة». قنبلة تحوي موادّ متفجّرة، على الوجهين المجازيّين.

أفضّل الأدب المندمج والطّالع من رحم المجتمع. أنا شخصيا لا أستطيع الانعتاق عن السّياسة، السّياسة هي اليوميّ والحياتيّ والشّعبيّ والواقعيّ.

قمت بتحقيقات بحثيّة مطوّلة، في كلّ من أرشيف الهستدروت في تل أبيب، وفي الأرشيف الصّهيونيّ في القدس. حتى أنني قمت بزيارة «متحف الجمرك» الذي تمّ إغلاقه، هناك عثرت على أشياء مذهلة – قصص البضائع، أصحابها، مستوردوها، عمال الجمرك، كيف أدير الجمرك، من كانوا، يهود، عرب؟ أيّ عرب؟ مسلمين؟ كيف يقومون بتحرير بضاعة؟ ما الأسماء المهنيّة لعمليّات الجمرك؟ وعلى سبيل المثال، في الأرشيف الصهيونيّ تتواجد كل المكاتبات بين منظومة الانتداب وبين المواطنين، وبين قادة الييشوف اليهوديّ، والتي من شأنها أن تفهمك العلاقات بين الطّرفين.

س: ألا تنتقص السّياسة من جودة الأدب؟

ج: اسمع، هذا شخصيّ جدًا، إذا كتبَ أحدهم بشكل قسريّ مفتعل، فلن ينجح الأمر. يجب أن تكون هذه الثّيمات مدموجة بشكل طبيعيّ، وحينها يكون الأدب راقيًا. يجب أن تكون السّياسة موظّفة بشكل تناغميّ غير متكلّف، حينها من الممكن الارتقاء بعمل أدبيّ سياسيّ معيّن إلى أعلى الدّرجات. مبدئيًا، لا تؤثّر السّياسة على جودة الأدب برأيي.

س: ما الدّافع من وراء تأسيسك مجموعة «مطعان» ودعم الشّباب والشّابّات اليّافيّات/ ين؟

ج: لأنني مُنْحَازٌ إلى يافا، لأنها المدينة التي أعيش وأحيا وأعمل فيها. ولأنّ يافا كانت مدينة عربيّة فلسطينيّة مركزيّة ورئيسة قبل قيام الدّولة، كانت عروس فلسطين، عروس البحر، وكان تجذب إليها الكثير الكثير من الزّوّار والتّجار من كافّة أقطار الشّرق الأوسط. كانت أُمَمِيَّة، وليست ضيّقة الأُفق.

ما يدفعني للكتابة عن يافا ولدعم كتّابها العرب اليافيين واليهود أيضًا، أنّ طموحي الأدبيّ هو أن أحكي/ أكتب الرّواية الفلسطينيّة غير المحكية في الرّواية الصّهيونيّة الرّئيسة المقبولة. لذلك عليّ دعم هذا الجيل، هذه البذرة، وتنمية هذا التّفاعل الخلاّق الذي يثمر أعمالاً إبداعيّة متنوّعة.

س: أنت تنبش في حقبة ما قبل ١٩٤٨؟

ج: حتّى الآن، في رواياتي ومجموعاتي عالجت القضايا والأجواء في فلسطين ما قبل العام ١٩٤٨. في «قصّة ناصيف» دخلت قليلاً إلى فترة ما بعد النّكبة.

س: كيهوديّ، ألا تجد رهبة أو تخوّفًا في محاولة ولوج/ تقمّص/ كتابة الصّوت الفلسطينيّ؟

ج: أنا لا أتعامل مع هذه الأفكار، لا أطرحها برأسي، لا أعيرها أيّ أهميّة، فلو كانت موجودة لديّ لما تجرّأت على المساس بها والاقتراب منها. لا في الكتابة عن تلك الحقبة، ولا بحكاية صوت من الطّرف الآخر. هذا ما يهمّني ويثيرني ولذلك أقوم به. أتقن ما أقوم به. أجتهد لأفعل ذلك. أقوم بما أحب. أنا واعٍ للنفور أو الرأي المسبق الذي يدّعيه الفلسطينيون حيث لا يتحمّسون من دخولي هذه المنطقة!

س: هل توافق على ذلك؟

ج: لا أعترض، لا أوافق. أنا لا أستطيع الكتابة بالضّبط كما يمكن لفلسطينيّ، أو كما يكتب من وُلِدَ في يافا، الذي سيكتب بالطّبع بطريقة مختلفة عنّي. يمكنني أن أتفّهم هذا الادّعاء الفلسطينيّ. لكن، شخصيًا لا تهمّني سوى عمليّة الكتابة نفسها.

س: في روايتك، ألمينا، يبدو من الواضح قيامك بتحقيق صحافي عميق؟ بدخولك أراشيف؟ لترسم صورة ذات مصداقيّة عالية عن الفترة التي تعالجها الرّواية؟

ج: بالطّبع، قمت بتحقيقات بحثيّة مطوّلة، في كلّ من أرشيف الهستدروت في تل أبيب، وفي الأرشيف الصّهيونيّ في القدس. حتى أنني قمت بزيارة «متحف الجمرك» الذي تمّ إغلاقه، هناك عثرت على أشياء مذهلة – قصص البضائع، أصحابها، مستوردوها، عمال الجمرك، كيف أدير الجمرك، من كانوا، يهود، عرب؟ أيّ عرب؟ مسلمين؟ كيف يقومون بتحرير بضاعة؟ ما الأسماء المهنيّة لعمليّات الجمرك؟ وعلى سبيل المثال، في الأرشيف الصهيونيّ تتواجد كل المكاتبات بين منظومة الانتداب وبين المواطنين، وبين قادة الييشوف اليهوديّ، والتي من شأنها أن تفهمك العلاقات بين الطّرفين.

هذا النبش غريب جدًا. فعمليًا، ماذا يفعل عامل الأرشيف؟

هو مماثل لعامل المكتبة، إلى حدّ ما. عامل الأرشيف يلتقط كلّ شيء، لا يهمّ ما هو: كل قصاصة ورقة، ووظيفته ألا يتدخّل في ما هو مكتوب، حتّى لو كانت القصاصة تحتوي على وصفة وجبة إفطار، يجب عليه أن يوثّقها ويضعها في الأرشيف. وبين هذا الطّيف الهائل للمعلومات والقصاصات والمكاتبات، تجد أشياءً مثيرة للغاية. كانت الموادّ متاحة لي. ومكّنتني من الإمساك بتفاصيل الحقبة.

س: ماذا هدفت من وراء دخولك الأرشيف؟

ج: همّني الدّخول إلى أعماق الشّخصيات، الدّوافع التي كانت وراء أعمال قام بها أشخاص معيّنون. أن أمسك بتفاصيل الحقبة، مكانيًا، حيّزيًا ونفسيًا. الموادّ في الأراشيف هي فسيفساء يمكن بناء الكثير منه.

س: كل هذا له أصداء في ألمينا؟

ج: كلّ هذه هي أدوات بحثيّة. يجب التّأكيد على التّخييل، وفقط التّخييل، الذي هو يبني عملاً أدبيًا ينتمي للأدب الواقعيّ. ولأكون ذا مصداقيّة، توجّب عليّ أن أفهم أيّ نوع من التّعاون بين العمّال الفلسطينيّين وبين الهستدروت، أيّ مكاتبات، ما نوع العلاقات بينهم؟ وما إلى ذلك. هذا يتجلّى في الشّخصيّات وعوالمها وتفاعلاتها بعضها مع بعض ومع بيئتها.

س: روايتك تحتوي على اصطلاحات غنيّة تفصيليّة للمكان، للجماد، للأدوات؟

ج: هذا العالم يجب أن يوصف بتفاصيله. قمت بمحاورة بحريّة يافيّين. جلست مع الكثير. وعلى فكرة، عثرت على مخطّط بناية الميناء الذي وضعه البريطانيون، على كافة التخطيطات له، لبناياته، لمخازنه. هذا يجعل الأمر أكثر مصداقيّة. موادّ مكّنتني من رؤية الواقع كما كان حينها، من ناحية المشهد العامّ للمكان، الميناء – كيف عمل؟ حاورت يافيين، مسنين، لكي أعلم مكان المقهى في الميناء على سبيل المثال. لأنّ المقاهي لم تكن في تخطيط المبنى الرّسميّ، هي شعبيّة، ولذلك يجب أن تسأل أبا جورج البحّار اليافيّ، لكي تفهم الأمر، لكي تفهم أنواع القوارب، عرضها، مبناها، مقاساتها، الفرق بين القارب الغزيّ واليافيّ، مراحل البناء، الموادّ التي استخدموها في بناء وتركيب هذه القوارب. إضافةً إلى القاموس المصغّر اليافيّ لعالم البحريّة في الرّواية، وقد ألّفه سليمان شبلي (أبو جورج)، وإلياس وكيلة. يجب على القارئ أن يفهم هذه المصطلحات، لأمنحه المكانَ كيفما بدا في حينه بمصداقيّة. وَفَوْقَه أبني شخصيّاتي الأدبيّة.

س: تتناول كافّة النّسيج الاجتماعيّ، ليس اليهود فقط، أو العرب، ليس المحليّين أو القرويّين، بل الجميع؟

ج: كأديب، يجب أن أشمل هذا الخلفيّة للحكاية. صحيح أنّ القصّة متخيّلة من نسج الخيال من الألف إلى الياء، لكن القصّة تحكي عن التّوترات، عن النّسيج الاجتماعيّ، عن الأفكار السّياسيّة، عن الجرائد الفلسطينيّة مختلفة المشارب والتّوجّهات، عن المقاهي، عن الخيانات، عن الوطنيّة، عن البحر وألينا اليافيّ. عن جميع من تواجدوا في إطار ذلك المكان، يافا، من عرب، يهود، أجانب، متديّنين، علمانيّين، قوميّين، الجميع.

أنا أقوم بتسجيل رواية مدينة في حقبات مختلفة عبر قصّة شخص واحد أو أكثر.